الفصل الأول

التاريخ .. ولماذا ندرسه ؟

ـ طبيعة علم التاريخ .
ـ ذم التاريخ وأهله .
ـ ضرورة الدراسة التاريخية ، وأهميتها ، وفوائدها .
ـ فلسفة التاريخ .
ـ التاريخ حوار بين الماضى والحاضر .

التاريخ ، ولماذا ندرسه ؟

طبيعة علم التاريخ :

بعد هذه المقابلة فى الرأى فى علم التاريخ بين اثنين من أكابر فلاسفة التاريخ، وهى مقابلة أردنا من ورائها أن نستلفت النظر إلى صعوبة إدراك حقيقة التاريخ وفائدته ، نعود فنسأل : ما هو التاريخ ؟

والجواب هو دراسة الحوادث ، أو هو الحوادث نفسها .

والحوادث : جمع حادث ، والحادث : هو ـ من وجهة نظر المؤرخ ـ كل ما يطرأ من تغير على حياة البشر . وكل ما يطرأ من تغير على الأرض أو فى الكون متصلاً بحياة البشر .

والحادث قد يكون مفاجئاً كوقوع زلزال يهدم المدن ، وقد يكون عنيفاً مثل قيام حرب ، وقد يكون بطيئاً غير محسوس كعمليات التطور البطيئة التى لا يفطن الإنسان إلى حدوثها إلا على المدى الطويل ، ومثال ذلك : تطور المرأة العربية ، وخروجها من عزلة البيت إلى الحياة العامة ، ومساهمتها فى كل ميادين النشاط الاجتماعى والثقافى والسياسى أيضاً ، فهذه عملية طويلة بدأت من أواخر القرن الماضى ، ولا زالت مستمرة إلى اليوم . وهى فى مجموعها حادث تاريخى خطير بعيد المدى ، وقد يقع الحادث دون أن يفطن إليه أحد ، ثم تتجلى خطورته فيما بعد، مثل ميلاد طفل يصبح فى يوم من الأيام قائداً كبيراً ، أو مفكراً عظيماً ، أو سياسيًا ماهرًا ، أى : يصبح من صناع التاريخ .

وسواء أكانت الحوادث صغيرة أم كبيرة ، محسوسة أم غير محسوسة ، قصيرة الأمد أم طويلته، فإن الجامع بينها هو أن الحال قبلها يختلف عنه بعد وقوعها، فالعالم قبل نابليون يختلف عن العالم بعده ، والدنيا قبل الحرب العالمية الثانية تختلف عنها بعدها ، والفكر الإنسانى قبل جورج برنارد شو يختلف عنه

بعده ، وهكذا ، فالعبرة فى الحوادث ـ التى هى مادة التاريخ ـ هى أن تعنى تغيراً فى الأحوال ، سواء أكان هذا التغير كبيراً أم صغيراً ، محلياً أو عالمياً ، فحوادث التاريخ إذن هى تغيرات ، والحادث ـ على ذلك ـ هو التغير ، وإذا نحن أردنا أن نتبين أهمية حادث ما ، فنحن نقارن الأحوال قبله وبعده . وعلى هذا الأساس فنحن نعتبر ظهور من نسميهم بعظماء الرجال ، أو صناع التاريخ حوادث ؛ فيوليوس قيصر حادث ، وخالد بن الوليد حادث، والشيخ محمد عبده حادث ، وهكذا ، وواضح أننا إذا اعتبرنا كُلاً من أولئك الرجال حادثاً فنحن نأخذه فى مجموعه ، وننظر إلى حجم التغير الذى أحدثه فى مسيرة البشر .

ولكننا إذا فكّرنا ملياً ؛ وجدنا أن التغير ـ فى حقيقة الأمر ـ مستمر ، وهو لا يتوقف على ظهور أشخاص بأعيانهم ، ولا ينتج عن تجمع ظروف تؤدى إلى قيام دول ، أو نشوء حروب ، أو وقوع تطورات وما إلى ذلك ، بل إن التغير فى أحوال الأرض والناس مستمر منذ أن أنشأ الله الخلق إلى أن يطويه ، وإذا نحن أخذنا حقبة من الزمن من تاريخ أمة لاحظنا أن مجرد مرور الزمن يحدث تغيراً إلى الأحسن أو إلى الأسوأ ، ولكنه تغير على أى حال ، وهذا التغير يحدث نتيجة لسير الزمن نفسه ، فما دامت الشمس سائرة فى فلكها ، والأرض فى مدارها ، فلا وقوف للتغير، ونحن نحس فى أنفسنا ذلك، فنحن نتغير مع مرور الليالى والأيام ، وننتقل من الطفولة إلى الشيخوخة دون أن تكون لنا يد فى ذلك ، ولقد قالت سيمون دى بوفوار ـ تلميذة جان بول سارتر ـ : إن أقوى عامل فى حياتنا هو ذلك الشيء الذى لا يُحَسّ ولا يُرَى ولا يُدرَك له وزن : الزمن . إننى أحس الآن بوطأته على كتفى ، والحق أن الزمن نفسه هو الحادث الأكبر ، وإذا استطعنا أن نتصور أن الزمن يمكن أن يتوقف لرأينا أن الحوادث هى الأخرى يمكن أن تتوقف .

والحق أن الشاعر الذى قال :

اللّيالِى مِنَ الزّمَانِ حبَالَى ... مُثقَلاتٌ يَلِدْنَ كلّ عَجِيبَة

لم يفطن إلى عمق الحقيقة التى توصل إليها فى هذا البيت .

فإذا كان التاريخ فى حقيقته هو الحوادث ، وكانت الحوادث هى التغيرات ،

والتغيرات وليدة الزمان أو سير الزمان ، انتهينا إلى أن التاريخ هو الزمان ، ويكون ميدان اهتمام المؤرخ ـ على هذا ـ هو دراسة كل تغير طرأ على الكون والأرض وكان له تأثير على حياة البشر ، ثم دراسة كل تغير طرأ على حياة البشر أنفسهم ، مهما كان هذا التغير صغيراً أو غير ظاهر الأهمية ، فالحقيقة أنه لا توجد حوادث صغيرة وأخرى كبيرة ؛ لأن الحوادث الكبيرة إنما هى تجمع حوادث صغيرة بعضها إلى بعض فى نطاق مكانى وزمانى ضيق ، وكما أن السيل الجارف ينشأ من تجمع ذرات صغيرة من البخار ، فإن وقوع حرب عالمية مدمرة يكون فى الغالب نتيجة تجمع مشاكل بشرية وسياسية ، وتراكمها فى دولة من الدول ، أو أكثر ، وفى الوقت نفسه تتراكم الخصومات والحزازات ، وتصطدم المصالح والأهواء مرة بعد أخرى ، وكل حادثة صغيرة من هذه تخلف وراءها فى النفوس أثراً يتراكم مع مرور الزمن؛ فيؤدى هذا التجمع والتراكم إلى الاحتكاك ثم الانفجار ، وكذلك الحال بالنسبة لمن نسميهم عظماء الرجال ، فهم فى ذاتهم لا قيمة لهم إلا بالرجال الذين ساروا وراءهم وأيدوهم ، وما قيمة نابليون بدون جنوده ، وما قيمة المتنبى بدون قرائه ؟!

لقد شبهوا سير التاريخ بسير الماء فى مجرى طويل يتسع حيناً ويضيق حيناً ، ويستقيم حيناً ويتعرج حيناً ، وينبسط مرة ثم ينحدر فى صورة شلالات مرة أخرى، وقد تعترضه الجنادل والصخور،والماء ـ الذى هو التاريخ ـ يسير بحسب حالة المجرى ، فإذا اتسع المجرى انساح الماء وبَطؤت حركته ، وإذا استقام انساب الماء رقيقاً ، حتى لا تحس بانسيابه ، وإذا تعرج تلوى معه الماء وتراخى سيره أو اندفع بحسب المتعرجات ، ونفس هذا الماء الهادئ يتحول إلى شلال رهيب، فينصب انصباباً يحطم أقسى الصخور إذا انحدر المجرى انحداراً عنيفاً، وإذا أُحْسِن التحكم فيه؛ أطلق قوى كهربائية ضخمة من عقالها، وهذا هو سير التاريخ أَو سير الزمان بعصور هدوئه وعصور فورانه، ومصدر القوة والخير والرى والكهرباء هو ذلك الماء الهادئ الصامت الذى تحفن منه فى كفيك وتنظر فلا ترى شيئًا ، وهذا هو الزمان الذى شكت منه سيمون دى بوفوار ، وتعجبت من أنه صنع بها ما صنع ، ومع ذلك فهو لا يُرَى ولا يُحَسّ ولا يُدرَك له وزن . وإذا كان

نهـر الماء يتكون من شـيئين : المـاء ، والمجـرى ، فإن نـهر التـاريخ يتكون من عنصرين : البشر والزمان ، ويضاف إليهما عنصر ثالث وهو المكان .

وفى بداية التـاريخ ـ أى: فى عصـور توحش الإنسـان الأولى ـ كان الإنسـان يعيش تحت رحمة الزمان والمكان ، فلما نما ذهنه ، واتسعت تجاربه بدأ يتأمل ما حوله ، وأخـذ يحاول التحكم فى الزمـان والمكان ، ولكى يحمى نفسـه من عبث الزمان وتحكم المكان تعلـم كيف يتخذ أسلحـة وأكسية ، وسكن المـغارات ، ثم تعلم كـيف يبنى الكوخ . وعندمـا اهتدى إلى فـضل النار ، وعـرف كيف يوقـدها خطا خطوة فسـيحة إلى الأمام ، ثم تعلم كـيف يدخر غذاءه ، ثم كيف ينتـجه عن طريق الزراعة، وهكذا مـضى فى طريق التحكم فى ظروفـه الزمانيـة والمكانية عن طريق التفكيـر والتجربة،وعندمـا فطن إلى فكرة الكتابة دخل عصـور التاريخ؛لأن الكتابة مكنت له من أن يختزن معلومـاته وثمرات تجاربه عن طريق التدوين لينتفع بها فيما بعد، وعندما وصل إلى ذلك خرج من ركود البدائية إلى حركة التاريخ .

وهذا الطريق الذى سار فيه الإنسان منذ عـصور البداوة والتوحش إلى عصور الكتابة وما تلا ذلك من عصور ، هو الذى يسـمى بالتاريخ السياسى والحضارى ، فأمـا السياسى فـهو جانب الصـراع الذى خاضه ويـخوضه الإنسـان لتأمين نفـسه ومجتمـعه من العدوان الخارجى ، ثم تنظيم هذا المجتمع على نحـو يوفر له أكبر جانب من الأمان والرخاء ، وأما الحضارى فهو صـراعه للارتقاء بنفسه وبمستواه المعـاشى من الناحيـتين المـادية والمعنوية ، ومن الواضح أن الجـانبين السـياسى والحضارى متلازمان، ولا يمكن دراسة واحد منهما دون دراسة الآخر، ولا يمكن الفـصل بين التـاريخ السـياسى والحضـارى ، وإنمـا يمكن الاهتـمـام فى بعض المؤلفات بجانب السياسة أكثر من الاهتمام بجانب الحضارة أو العكس .

وهذا الكلام يوهم بأن ميدان التاريخ هو الماضى وحده ، أو حكاية ما انقضى وفات وطواه الزمـان فى سَيْـرِه الأبد من الأحداث ،وليس هذا بصـحيح ؛ لأننا إذا قلنا إن التاريخ هو نهـر الحياة ، فإن هذا النهر مـتصل السير قبلنـا وفى زماننا وبعد زمـاننا ، وإذا قلنا إننا عندمـا نكتب الـتاريخ ، فـمـعنى ذلك أننا نسـجل التـجـربة

الإنسانية، فإن هذه التجربة ما زالت سائرة متصلة الحلقات ، والتاريخ ـ على هذا ـ يشمل الماضى والحاضر والمستقبل معاً ، ونحن عندما ندرس الماضى ، فإننا فى الوقت نفسه ندرس الحاضر والمستقبل ؛ لأننا إذا دققنا النظر ؛ تبينا أن لا شىء فى الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن . وفى علم الطبيعة يقولون : إن المادة لا تفنى ، أما فى علم التاريخ فنحن نقول : أن لا شىء يزول زوالاً تاماً ، وإنما هى الأشياء نفسها تأخذ مع الأيام صوراً شتى ، فلو أنك نظرت إلى صورتك وأنت طفل رضيع، وقارنتها بصورتك فى يومك ، لَهالَكَ الفرق ، ولحسبت أنكما إنسانان مختلفان ، والحقيقة أن هذا الطفل هو أنت فى صورة أخرى ، والفرق الذى تراه هو فعل الزمان ، ومن هنا فإن الذين ينظرون إلى كتاب فى تاريخ مصر القديمة مثلاً ويحسبون أنه تاريخ مضى وانقضى يخطئون ؛ لأن شعب مصر القديمة ما زال حياً فى كيان شعب مصر الراهن ، وحضارتها ما زالت قائمة فى الكثير من مظاهر حضارتنا الراهنة ، ونحن العرب أولى من غيرنا بالإحساس بحيوية الماضى ، فإن أسماء: عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وهارون الرشيد ، وأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، أسماء معاصرة تتردد فى أذهاننا وكلامنا كل يوم ؛ لأننا نعيش تاريخنا الماضى فعلاً، بل إن بعضنا يذهب به الحماس إلى درجة أن يؤمن بأنه من الممكن أن نعود إلى هذا الماضى فنعيشه كما كان ، حقاً لقد دخلت الإنسانية كلها طوراً من التقدم جديداً من كل ناحية من أوائل القرن التاسع عشر ، وظهرت نتيجة لذلك صور للمجتمع البشرى تختلف كل الاختلاف عن صوره الماضية ، ولكن ليس معنى ذلك أن الماضى قبل ذلك اختفى بحذافيره ، بل لا زال حياً فى كل ناحية من نواحى حياتنا الراهنة . وإذا كنا نحن أحفاد من عاشوا قبل القرن التاسع عشر نحمل فى كياننا الكثير من خصائصهم المميزة ، بل ما زلنا نتكلم لغتهم ونؤمن بنفس العقائد التى آمنوا بها ، فإن كل معالم حياتنا هى أيضاً حفيدة معالم حضارتهم ـ وإن اختلفت المظاهر ـ لأن الماضى لا يموت،أو قل إنه ليس هنا شىء ماض تماماً .

ثم أين هو الفاصل بين الماضى والحاضر والمستقبل ؟ إنك لا تكاد تفكر فى لحظة « حاضرة » حتى تجد أنها قد أصبحت ماضياً فى طرفة عين ، وهذه السطور

التى تقرأها الآن « ماضية » بالنسبة لى ؛ لأننى كتبتها من زمن ، ولكنها « حاضر » بالنسبة لك لأنك تقرأها أول مرة، وهى «مستقبل» لمن لم يقرأها بعد، ولمن يريد أن يقرأها فى قابل الأيام، والمسألة هنا مسألة « نسبية » تختلف من إنسان لإنسان، بل يختلف الحكم عليها بحسب اختلاف حالة الإنسان نفسه من زمان لزمان، وقد قالت بهذا مدرسة كاملة من مدارس المؤرخين المعاصرين، وهى مدرسة النِّسْبِيِّين The Relativists وسنقف عندها ـ فيما بعد ـ وقفة طويلة بعض الشىء .

وعلى هذا فالمؤرخ ليس ذلك الرجل العتيق طويل اللحية الغارق فى غبار الماضى ، ولا هو ذلك الشيخ الذى حنت ظهره السنون التى قضاها زاحفاً بين الأسفار العتيقة والأضابير المتراكمة فى كهوف المكتبات ، وإنما هو على العكس من ذلك تماماً، إنه دارس حياة البشر كلها قديمها وحديثها ومستقبلها،وهو يدرس الماضى ونظره متجه إلى المستقبل ، فى حين تقف أقدامه ثابتة على أرض الحاضر، وهو يعتبر تاريخ الإنسانية كلها تجربة واحدة بدأها آدم ـ عليه السلام ـ وسار فيها أولاده ، وهو يرقبها ويحللها ويستخرج حقائقها لعله يخرج بشىء من الحكمة ينفع الإنسانية فى تجاربها الكثيرة . وإذن: فالمؤرخ ليس مسجل أحداث الماضى فحسب ، بل هو رفيق الإنسانية فى حاضرها، وهو من قادة الإنسانية فى سيرها الطويل نحو الغد .

ومع هذا الجهد الذى يبذله المؤرخ لينير لإخوانه البشر الطريق ـ مثله فى ذلك مثل غيره من أهل العلوم النافعة ـ فقد تعرض المؤرخون دائماً للنقد ، بل للسخرية، وفى أيامنا هذه يلاحظ بصورة عامة انصراف الكثيرين من أذكياء الشبان عن دراسة التاريخ، على اعتبار أنها دراسة عقيمة لا يتحقق من ورائها نفع واضح ، إلا إذا كان الغرض من دراسته الاشتغال ـ فيما بعد ـ بتدريسه فى المدارس ، أو التخصص فيه فى الجامعات . ومن هنا فإنه يلاحظ تضخم أقسام التاريخ فى جامعات البلاد الفقيرة ، لأن ذلك طريق سهل نوعاً للحصول على درجة جامعية تفتح أمام صاحبها أبواب التدريس ، وهو عمل مطلوب دائم ومأمون ، برغم قلة مكاسبه . أما فى البلاد الميسورة الحال ـ أو الغنية ـ فإن الطلاب ذوى الحس التاريخى يتجهون إلى دراسة علوم متصلة به ، لكنها تفتح سبلاً أوسع للصعود الاجتماعى كالعلوم السياسية والاجتماع .

ونحن الذين ندرس التاريخ نجد أنفسنا فى أحيان كثيرة مضطرين إلى الدفاع عن العلم الذى تخصصنا فيه ، وتبرير اشتغالنا به ، لأن الكثيرين من الناس لايزالون مثل دوق كامبرلاند الذى مر بالمؤرخ المشهور إدوارد جيبون ، وهو غارق فى العمل فى كتابه عن اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها ، فقال له ساخراً : « ما أراك إلا منصرفاً ما تزال إلى الحرفة القديمة : تنبش ثم تنبش ثم تنبش »(١) .

وقد تصدى شمس الدين السخاوى (٨٣١ ـ ٩٠٢هـ / ١٤٢٧ ـ ١٤٩٧م) للرد على خصوم التاريخ فى كتابه المعروف « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ» ، ولكنه هو نفسه لم يعرف كيف ينصفهم ؛ لأن السخاوى لم يكن مؤرخاً أو صاحب ملكة تعينه على إدراك حقيقة التاريخ ، إنما كان السخاوى حافظاً أثقل رأسه بحفظ عشرات المجلدات ، فغلبت على ذهنه الملكة الواعية على الملكة المفكرة، وتلك ظاهرة نلاحظها عند الكثيرين من الحفاظ الذين حولوا أذهانهم إلى دور محفوظات متنقلة، وضعفت فيهم أو عندهم ملكة التفكير والتأمل ، ومن هنا فإن مفهومه للتاريخ ضيق جداً ، بل يخلو تماماً من الحس الإنسانى والحضارى ، فالتاريخ عنده : « فى الاصطلاح ـ التعريف بالوقت الذى تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة وصحة عقل وبَدَن ، ورِحْلَة وحفظ وضبط وتدقيق وتجريح وما أشبه هذا مما مَرْجِعُه الفحص عن أحوالهم فى ابتدائهم وحالهم واستقبالهم ، ويلتحق به ما يتفق فى الحوادث والوقائع الجلية ، من ظهور ملمَّة ، وتجديد فرض ، وخليفة ووزير وغزوة وملحمة وحرب وفتح بلد وانتزاعه من متغلب عليه، وانتقال دولة، وربما يُتَوَسَّع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية ، وأحوال القيامة ومقدماتها كما سيأتى ، أو دونها كبناء جامع أو مدرسة أو قنطرة أو رصيف أو نحوها مما يعم الانتفاع به مما هو شائع مُشَاهد ، أو خَفِىٍّ سماوىٍّ كجراد وكسوف وخسوف ، أو أرْضِىٍّ كزلزلة وحريق وسيل وطوفان وقحط وطاعون وموتان ، وغيرها من الآيات العظام

(1) So I suppose you are at the old trade again : scribble, scribble, scribble.

والعجائب الجسام . والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حينية التعيين والتوقيت ، بل عما كان فى العالم » .

وهذا ـ فى رأينا ـ أضعف ما يمكن أن يقال فى التعريف بالتاريخ ، فهو سقيم سطحى من كل ناحية ، بل إن أسلوبه ردىء غير متماسك .

وفى كلام السخاوى عن « فائدة التاريخ » نجده يحدد أفق هذا العلم إلى درجة أن يجعله علماً فرعياً مساعداً لعلم الحديث ، وجعل مزيّته الكبرى تحقيق سنوات ميلاد الرواة ووفاتهم ، حتى نتأكد من إمكان لقاء بعضهم ببعض ، ورواية بعضهم عن بعض. ومدار كلامه فى هذا الشأن قول سفيان الثورى : « لما استعمل الرواة الكذب ، استعملنا لهم التاريخ ».

ثم ذكر السخاوى بعد ذلك فوائد شتى تدل على أنه هو نفسه كان بعيداً عن إدراك حقيقة التاريخ والإلمام بفضائله؛ فهو يرى فيه أولاً مقياساً للتحقق من صحة رواية الناس للأحاديث بعضهم عن بعض ، ثم يرى فيه ـ ثانياً ـ موضعاً للعبرة : «وكذا ما يذكر فيه من أخبار الملوك وسياساتهم ، وأسباب مبادئ الدول وإقبالها ، ثم سبب انقراضها ، وتدبير أصحاب الجيوش والوزراء ، وما يتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر مثلها وأشباهها فى العالم ، غزير النفع كثير الفائدة ، بحيث يكون مَنْ عَرَفَه كمن عاش الدهر كله ، وجرب الأمور بأسرها ، وباشر تلك الأحوال بنفسه ، فيغزر عقله ويصير مجربًا غيرَ غرٍّ ولا غَمْر ، كما سيأتى فى نظم بعضهم ... وإنه أيضاً جم الفوائد ، كثير النفع لذوى الهمم العالية والقرائح الصافية ، لما جبلت عليه طباعهم من الارتياح عند سماعهم هذه الأخبار إلى التشبه والاقتداء بأربابها؛ ليصير لهم نصيب من حسن الثناء ، وطيب الذكر ، الذى حرص عليه خلاصة البشر ، وأخبر الله تعالى عن إمام الحنفاء الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾[الشعراء: ٨٤] وامتن على غير واحد من رسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾[الصافات: ٧٨][1] وعلى خيرته من خلقه ـ عليه أفضل الصلاة

---

(١) السخاوى يجتزئ هنا آية يظن أنها تؤيد رأيه ، ولو أنه أتى بما قبلها وما بعدها لكان أفضل وأقرب =

والسلام ـ بقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[الشرح : ٤] ، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] .

ولكننا نحمد للسخاوى أنه جمع فى « الإعلان والتوبيخ » طائفة من أحسن ما قال العرب فى التاريخ، وكلامهم فى مجموعه لا يخرج عما ذكرناه من فضائل التاريخ عند كتاب المسلمين ، وهى أنه يساعد على تحقيق تواريخ ميلاد الرواة ووفاتهم ، فيعين هذا على التثبت من صحة رواة الحديث أو عدم صحتهم ، ويقدم لنا مادة نافعة فى تفسير القرآن الكريم ، ثم هو إلى جانب ذلك حافل بالعبر والمواعظ ، أى أن للتاريخ ـ عنده ـ فى الجملة فائدتين رئيسيتين : الأولى دينية ، والأخرى تعليمية .

وهناك ـ على أى حال ـ إجماع بين قدامى المؤرخين ومحدثيهم على القيمة التعليمية للتاريخ .

ذم التاريخ وأهله :

ونحمد للسخاوى أيضاً أنه أتانا بأطراف مما قال خصوم دراسة التاريخ من كتاب المسلمين ، وقد أشرنا إلى ما ذهب إليه بعض أهل الغرب من عُقم الدراسة التاريخية وقلة جدواها ، ونضيف هنا أن سجل تاريخنا الفكرى لم يخل ممن رأوا فى دراسة التاريخ هذا الرأى ، وقالوا فيها : « إن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار، ومنهم من نسب بعضهم إلى القصور ، حيث لم يتعرض للجرح وضده ، مع كونه أعظم فوائده ، ولا على أخبار الأئمة والزهاد والعلماء الذين بذِكْرِهم تتنزل الرحمة ، ولا على شرح مذاهب الناس مع عموم الحاجة إليه،بل اقتصر على الحروب والفتوحات ونحوها

= إلى أن يزكى كلامه بقوله سبحانه فى نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الصافات: الآيات ٧٥ ـ ٧٨]

مع أن من أنصف يعلم أنه ليس من العلم فتح البلد الفلانى فى سنة كذا ، ولا أن عدد الجيش كان كذا » .

« ومنهم من نسب المتعرض منهم للتجريح فى الأزمان المتأخرة إلى ارتكاب المحرم لأنه غيبة ،وأن الأخبار المرخص له من أجلها قد دُوِّنت وما بقى له فائدة ، وممن صرح بهذا أبو عمرو بن المرابط ، وقال : إن فائدته انقطعت من رأس الأربعمائة ، ودندن هو وغيره ممن لم يتدبر مقاله بعيب المحدثين بذلك ، وصرح بعضهم بأن ما يقع فى كلام جماعة من المتأخرين القائمين بالتاريخ وما أشبه كالذهبى ، ثم شيخنا من ذكر المعائب ـ ولو كان المعاب من أهل الرواية ـ غيبة محضة . ونحوه تَعَقُّب التقى بن دقيق العيد ابن السمعانى[1] فى ذكره بعض الشعراء وقدح فيه بقوله : إذا لم يضطر إلى القدح فيه للرواية لم يَجُزْ » .

« ومنهم مَنْ نسب بعضهم (أى: بعض المؤرخين) إلى التقصير والتعصب ؛ حيث لم يستوعب القول فيمن هو منحرف عنهم ، بل يحذف كثيراً من ثناء الناس عليهم ، ويستوفى الكلام فيمن عداهم غير مقتصر عليهم » .

« ومنهم مَنِ الحامل له على الذم مجردُ الجهل ، فأما الأول فلا شك فى تحريم الاقتصار عليه حسبما قررناه، وأما الثانى فقد رواه ابن الأثير بما حاصله أنه ظَنٌّ من اقتصر على القشر دون اللب ، واختصر فلم ينظر ما فيها من الجواهر ، لما عنده من التعصب، ومن رزقه الله تعالى طبعاً سليماً ، وهداه صراطاً مستقيماً ، علم أن فوائده كثيرة ومنافعه الدنيوية والأخروية ـ يعنى ، كما قدّمنا ـ جمة غزيرة » .

« وأما الثالث ، فليس الاقتصار على ما ذكر نقص ، فالمؤرخون مقاصدهم مختلفة ، فمنهم من اقتصر على ذكر الابتداء ، أو على الملوك والخلفاء ، وأهل

---

(١) فى الأصل الذى نشره د. الصالح العلى ورد لفظ (ابن) بدون ألف مما يفهم منه أن تقى الدين بن دقيق العيد أنكر على ابن السمعانى ذكره بعض الشعراء وهو غير صحيح . والصحيح كما أعتقد أن تقى الدين بن دقيق العيد أنكر على ابن السمعانى قدحه لبعض الشعراء ، ويرى أن هذا القدح لا يجوز لأن القدح لا يجوز إلا إذا كان نقداً لراوية من رواة الحديث غير الموثوق فيهم .

الأثر يؤثرون ذكر العلماء والزهاد ويحبون أحاديث الصلحاء ، وأرباب الأدب يميلون إلى أهل العربية والشعراء » .

« ومعلوم أن الكل مطلوب والجميع محبوب وفيه مرغوب ، وكل من التزم شيئاً فالغالب عدم خروجه عن موضوعه ، وإن لم يمكنه الاستيفاء لمجموعه ، والسعيد من جمعه فى ديوان ، وأودعه من غير كبير خلل ولا نقصان ، والكمال لله » .

« وأما الرابع ، فقد أجبناهم بأن الملحوظ فى تسويغ ذلك كونه نصيحة ولا انحصار لها فى الرواية[1] . فقد ذكروا من الأماكن التى يجوز فيها ذكر المرء بما يكره ـ ولا يعد ذلك غيبة ، بل هو نصيحة واجبة ـ أن تكون للمذكور ولاية لا يقوم بها على وجهها ، إما بأن لا يكون صالحاً لها ، وإما بأن يكون فاسقاً أو مغفلاً أو نحو ذلك، فيذكر ليُدَال بغيره ممن يصلح، أو يكون مبتدعاً من المتصوفة وغيرهم، أو فاسقاً ، ويرى[2] من يتردد إليه للعلم أو للإرشاد ، ويخاف عليه عود الضرر من قِبَله ، فيعلمه ببيان حاله . ويلتحق بذلك المتساهل فى الفتوى أو التصنيف أو الأحكام أو الشهادات أو النقل أو الوعظ ، حيث يذكر الأكاذيب وما (لا) أصل له على رءوس العوام ، أو المتساهل فى ذكر العلماء . أو فى الرِّشا أو الارتشاء ، إما بتعاطيه له ، أو بإقراره عليه مع قدرته على منعه ، أو أكل أموال الناس بالحيلة والافتراء،أو الغاصب لكتب العلم من أربابها،أو من المساجد بحيث تصير ملكاً له، فضلاً عن الأوقاف التى لا حقيقة للمسوغ فيها ، أو غير ذلك من المحرمات .. فكل ذلك جائزٌ أو واجبٌ ذكره ، ليُحْذرَ ضرره . وبهذا ظهر أن الجرح لم ينقطع ، وأنه ـ والحالة هذه ـ من النصيحة الواجبة المثاب فاعلها ، وقد قال ـ من لم يشك

---

(١) يريد أن يقول أنه بين أن المهم فى إباحة نقد الناس وتجريحهم أن يكون ذلك على سبيل النصيحة والتحذير والتنبيه ، لا أن يكون مجرد ذم وتجريح ، ومواطن النصيحة فيما يتعلق برواية الأحاديث كثيرة لا تحصر .

(٢) الفاعل هنا هو المؤرخ .

فى ورعه ـ الإمام أحمد لأبى تراب النخشى حين عزله على[1] الجرح بقوله : « لا تغتب الناس، ويحك ، هذه نصيحة وليست غيبة »[2] .

ولا ينبغى أن تطول دهشتنا من طول وقوف السخاوى عند موضوع الغيبة ؛ لأن نقد رجال الحديث ـ أى: رواته ـ وهو المسمى بالجرح والتعديل ، كان يقوم على إصدار أحكام على الرواة ، فهذا صدوق ، وهذا عدل ، أو من أهل الضبط والتحرى ، وذاك كذاب، أو مدلس، أو فاسق، أو ضعيف، أو متروك . وكانوا قليلاً ما يمتدحون أحداً ، والكثير من كلامهم نقد وتجريح واتهام لأسباب شخصية فى الغالب . وقلَّ من سلم من لسانهم ، ولهذا ذهب أهل التصاون منهم إلى تحريم مثل هذا التجريح للناس وقالوا إنه غيبة ، وأباحه بعضهم ـ كما رأينا هنا ـ على أنها نصيحة . والأمر فى ذلك مقتصر على أهل الحديث ورواة الأخبار المتعلقة بالسيرة والصحابة، ومن هنا فهو لا ينطبق على المؤرخين عامة، ولا يمكن بداهة أن يرمى المؤرخ بالغيبة لأنه نقد هارون الرشيد أو المأمون أو ابن طولون أو نابليون فذلك موضوع آخر يختلف تماماً عما كان يدور فى أذهان السخاوى وأمثاله من الشيوخ .

وقد كتب فى علم التاريخ وفوائده كثيرون من المسلمين غير ابن خلدون والسخاوى ، ومعظم كلامهم يجىء فى فواتح كتبهم على سبيل التمهيد، أو على سبيل تبرير اشتغالهم بالتأليف فى هذا العلم أو اعتذارهم عن إنفاق الوقت فيه ، إذ كان التاريخ فى حسابهم من « الفنون » أى: العلوم الفرعية أو الثانوية المحدودة النفع ، ومن ثم فلا محل لإنفاق الوقت فيها ، فيما خلا ما يمكن أن ينفع المحدِّث أو مفسر القرآن من تفاصيل تاريخية . ولكن كل كلامهم فى تعريف التاريخ أو

---

(١) فى الأصل : عن ، والسياق يقضى إبدالها بعلى .

(٢) شمس الدين السخاوى ، « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » نشره ضمن ترجمته القيمة لكتاب تاريخ علم التاريخ عند المسلمين . وقد أتى د. الصالح العلى فى ترجمته بكل النصوص التى رجع إليها المؤلف وهو فرانتس روزنتال ، ص٤٦٢ .

مفهومه أو فوائده أو تقسيمه لا يخرج عما أورده السخاوى،وهو كلام ـ كما رأينا ـ بعيد عن إدراك حقيقة هذا العلم أو موضوعه أو مقاصده كما نراها اليوم ، ولكنه كلام يتفق مع عقلية العصور التى كتب فيها ، ومفهوم العلم كله فى نظر أهلها ، ونستثنى من ذلك ابن خلدون ، فقد كان بالفعل مفكراً سابقاً لأوانه ، وعالماً من طراز نادر فى تلك العصور .

ضرورة الدراسة التاريخية ، وأهميتها ، وفوائدها :

من أواخر القرن الثامن عشر ، كثر فى الغرب التأليف فى علم التاريخ وموضوعه ومناهجه وتفسيراته ومذاهبه ، وظهرت من ذلك الحين نظريات وآراء كثيرة جداً فى هذه الموضوعات . وسنعرض أهم هذه النظريات والآراء فى فقرة خاصة من هذا البحث ، ولكننى أورد هنا ترجمة لفقرة من أهم فقرات دراسة جامعة مختصرة ضمنها المؤرخ الإنجليزى آرثر مارفيك Arthur Marvic فى كتابه المسمى « طبيعة التاريخ »[1] The Nature of History ، وهو من الكتب الدراسية الجامعية المعتمدة Text - books الواسعة الانتشار فى جامعات أوربا وأمريكا ، وهو يمتاز بالإيجاز والشمول والوضوح، والفقرة تتناول ضرورة الدراسة التاريخية وأهميتها . قال مارفيك بعد تمهيد قصير (ص١٤ وما يليها) : « وإذن: فالتبرير الأساسى للدراسة التاريخية ، هو أنها ضرورية .. فهى تسد حاجة غريزة إنسانية أساسية، وتفى بحاجة أصيلة من حاجات البشر الذين يعيشون فى المجتمع » .

« وضرورة التاريخ لها وجهان ، فالتاريخ يقوم للإنسان والجماعة البشرية بوظيفة فعلية Functional ، بمعنى أنه يسد حاجة المجتمع إلى معرفة نفسه،ورغبته فى أن يفهم علاقته بالماضى ، وعلاقته بالمجتمعات الأخرى وثقافاتها، وهو ـ أى: التاريخ ـ شاعرى أو عاطفى Poetic ، بمعنى أن كل فرد تقريباً يضم فى كيانه تطلعاً مركباً فى طبعه ، وشعوراً بالعجب من أمر الماضى ، وهذا التطلع هو وعىٌ

---

(١) طبعاته الزهيدة الثمن كثيرة ، أهمها طبعة دار ماكميلان ودار بنجوين ، ونحن نتابع هنا طبعة ماكميلان سنة ١٩٧٠م .

عبَّر عنه جورج ماكولى تريفيليان George Macauly Trevelian بقوله : « إنه وعى إلى حقيقة كأنها عجيبة ، وهى أنه فى وقت ما مشى قبلنا على ظهر الأرض رجال ونساء ، ناس حقيقيون مثلنا اليوم ، تشغل أذهانهم أفكارهم الخاصة بهم ، وتحركهم عواطفهم الخاصة بهم، وأن هؤلاء الناس قد مضوا جميعاً إلى سبيلهم، واختفى جيل منهم فى إثر جيل ، وانتهوا تماماً كما سنختفى نحن أيضاً فى القريب، كما لو كنا أشباحاً فى ظلام الغسق » . «ففى أعماق الخيال الإنسانى ترقد رغبة غريزية فى تحطيم حواجز الزمن والموت ، ومَدِّ حدود الوعى الإنسانى بهذه الطريقة إلى ما وراء عمر الإنسان الواحد»[1]. «وهذه الغريزة شبيهة بهذا الشعور الذى يملأ نفس الإنسان فى أيام الخريف ، عندما يحس برائحة دخان الخشب تملأ الهواء من حوله ، وعندما يجتاح الذهن شوق غريب مضطرب ، وهذه الغريزة شبيهة أيضاً بالأحاسيس التى يثيرها فى النفس رنين أجراس الكنائس فى صباح يوم أحَدٍ ساكن»[2] .

« وسواء أكان المؤرخ يهتم أكثر بالناحية الشاعرية ، أم العملية من التاريخ ، فإنه يخدم حاجة إنسانية ، وإذا هو قال ـ كما لا يزال الكثيرون من المؤرخين يقولون ـ إنهم إنما يدرسون الماضى لذاته،فهو إما أن يكون مؤرخاً جيداً يؤمن من زمن طويل بالحاجة الواضحة لدراسة التاريخ إيماناً كاملاً ، وسلَّم بها كما هى ، أو يكون مؤرخاً سيئاً من طراز خاص . وحال المؤرخ فى هذا شبيهة بحال الفنان ،

---

(1) May Mackisack, History as Education (1956) P. 10 .

(2) G.Renier, History, its purpose and method (1950) P. 29 .

والتشبيهان يشيران إلى تطلع الإنسان إلى تعرف ما حوله ، وإحساسه وهو فى وحدته بأن هناك أناساً كثيرين يعيشون بعيداً عنه دون أن يراهم ، وهم الذين يوقدون النار فينبعث منها الدخان الذى يصل إليه ، وهم الذين يدقون أجراس الكنائس فتترامى إليه أصواتها وهو قابع فى بيته . هذه الأحاسيس تشبه أحاسيس الإنسان نحو الأجيال الماضية التى ذهبت وخلفت آثارها . وهذه الآثار تثير فى نفسه التطلع إلى معرفة أخبارها وما فعلت .

ففى أحيان كثيرة تتجلى لنا الحقيقة التى تقول بأنه على قدر ما يقل شعور المؤرخ بأهميته فى المجتمع، تزداد قدرته على القيام بواجبه كمؤرخ ، وهو شبيه بالفنان فى أنه يكون فناناً حقاً عندما يترك جانباً الاهتمام الظاهر بالغايات التى يتوخاها من وراء عمله؛ فإن المجتمع يحتاج إلى التاريخ لا إلى المؤرخ .والمؤرخ الذى يحس أكثر مما يجب بحاجة المجتمع إليه قد يكتب ـ نتيجة لهذا ـ تاريخاً سيئاً ، لأنه على الرغم من أن التاريخ له ذلك العنصر الاجتماعى القوى الخاص به الذى يعتبر تبريراً لوجوده فإنه يشترك مع غيره من العلوم الإنسانية فى أنه جزء من الهجوم العام الذى يقوم به الإنسان على المجهول الذى لم يكشف النقاب عنه بعد ، والمؤرخ شريك فى صراع الإنسان ليفهم بيئته من النواحى الطبيعية والزمنية والاجتماعية . فالتاريخ إذن ـ بالإضافة إلى المبررات الأساسية لدراسته والخاصة بهذه الدراسة ـ له نصيب فى المبرر العام لكل نشاط ذهنى يرمى إلى توسيع آفاق العلم الإنسانى (وليس من الضرورى أن يكون هذا الدافع إلى دراسة التاريخ أقوى من الدوافع التى يمكن ذكرها فيما يتصل بميادين أخرى من الجهد الإنسانى).

وما ذكرناه هنا إنْ هو إلا تبرير بدائى جداً لدراسة التاريخ ، وهو ليس التبرير الذى يُقدَّم دائماً أو فى غالب الحالات ، ولكن قبل أن نحاول أن ندلل على أن كل التفسيرات الأخرى هى فى صميمها تفسيرات فرعية أو مصاحبة للتبرير الأساسى، قد يكون من المفيد أن نذكر هنا تحديداً أو تحديدين ، فإن لفظ (التاريخ) يستعمل عادة فى ثلاثة مستويات من المعانى :

الأول : أن التاريخ يمكن أن يعرفنا بماضى البشر كله كما حدث . ولا شك أن الحياة تكون أبسط إذا نحن استطعنا أن ندع هذا التعبير جانباً ونأخذ بدلاً منه لفظ «الماضى» الذى يحمل فى طياته أكثر من معنى، ولكن اللغة ملك للجميع، وهى أحياناً تُفهم فهماً خاطئاً ، أو يستعملها الناس استعمالاً سيئاً ، ولا يمكن أن يكون استعمالها وتفسيرها تحت رحمة جماعة الأكاديميين المتحذلقين ، وحتى أولئك العلماء الذين أعلنوا على الملأ أنهم كفوا عن استعمال لفظ (التاريخ) فى

هذا المعنى ، سيجدون أنفسهم فى مرحلة ما من مراحل عملهم يخونون أنفسهم ؛ لأنه من العسير جداً أن يتجنب الإنسان استعمال عبارات ثقيلة الوزن مثل قولنا : «ليس التاريخ من عمل شخصيات الأبطال » ، أو « لقد حان الوقت لأن نتخذ من التاريخ ذخراً »[١] .

« **والاستعمال الثانى** ـ والأكثر فائدة ـ هو أن التاريخ يعنى أيضاً محاولة الإنسان وصف الماضى وتفسيره،وهو ـ كما قال الأستاذ باراكلاف Barraclough : المحاولة التى تبذل للكشف عن الأشياء المهمة فى الماضى على أساس من شواهد جزئية ماضية». وهذا هو التاريخ الذى نعنيه عندما نتحدث عن التاريخ كضرورة اجتماعية،أو عن التاريخ كصناعة[٢]وهذا هو أقرب المعانى إلى المفهوم الأصلى للفظ (التاريخ) عند الإغريق، وهو«الاستعلام أو الاستفهام» وواضح أن بعض محاولات الكشف أو الاستعلام أكثر توفيقاً من غيرها، وقد أعطت بعض عصور التاريخ أهمية لمسائل نضعها نحن الآن فى نطاق الخرافات والأساطير، أو نجعلها موضع مناقشة. إننا نستطيع أن نستمتع أو نستفيد من مؤلفات تاريخية ظهرت على طول تاريخ النشاط الأدبى الإنسانى مثل مؤلفات ثوكيديدس Thucydides[٣]،

---

(١) يريد أن المؤرخ لا يستطيع فى كثير من الأحيان التحذلق والادعاء بأنه يعالج بعلم التاريخ قضايا خطيرة مثل أهمية الأبطال فى صناعة التاريخ ، أو أن الأوان قد آن ليتبين الناس أن التاريخ كنز من كنوز المعارف.

(٢) بالإنجليزية History being an industry وسنتحدث عن هذه النقطة فيما بعد .

(٣) يمكن كتابة اسمه أيضاً توسيديد بحسب النطق الفرنسى لحرف C اليونانى واللاتينى . هو أكبر المؤرخين اليونان ، وقد عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو مشهور بالتاريخ الذى كتبه للحروب البلوبونيزية التى شبت بين الدويلات الإغريقية على أيامه ، وقد بدأت سنة ٤٣١ق. م . وكانت السن قد تقدمت به إذ ذاك ، فتنبه إلى أهميتها ، وتوقع أن تكون طويلة المدى وشرع فى كتابتها. وترجع أهمية كتاب ثوكيديدس إلى أنه يصف الحرب التى شنتها أثينا وحلفاؤها ضد إسبرطة التى كانت تبغض أثينا وديموقراطيتها وتعادى رجالاً من أمثال بيريكليس وديموستين . والكتاب حافل بالملاحظات ذات العمق والصدق ، ولهذا يعد ثوكيديدس تالياً لهيرودوت فى إنشاء علم التاريخ عند الغربيين .

وصو ـ ما ـ شيان Ssu-Ma-Chien[1]،وآدم بيد Adam Bede[2] ، وميكيافيلى Machiavelli[3] ، ولكننا ينبغى أن نلاحظ أن الدراسة المنهجية للتاريخ ، أى: دراسة التاريخ كعلم Discipline (وهذا هو **الاستعمال الثالث** للتاريخ) ، ظاهرة حديثة تقررت فى جامعات غرب أوربا وشمال أمريكا فى القرن التاسع عشر فقط متأخرة بذلك تأخراً كبيراً عن دراسات الفلسفة واللغات القديمة والرياضيات والعلوم الطبيعية »[4] .

---

(١) صو ـ ما ـ شيان Ssu- Ma- Chien ولد فيما بين ١٤٥ و ١٣٥ ق . م . وتوفى ٩٠ ق . م . هو أكبر المؤرخين الصينيين القدماء ، وهو مشهور بكتابه المسمى شيه ـ تشى Shih-Chi ، أى: سجلات المؤرخ ، وقد أتمه بعضهم بعد وفاته فى سنة ١٠٠ ق . م . وقد عاش فى بلاط الإمبراطور « دو » من أسرة هان Han ، وكتابه يغطى ٢٠٠٠ سنة من تاريخ الصين من بدايته إلى حياة المؤلف . وقد جرؤ صو ـ ما فى أواخر أيامه على الدفاع عن قائد مغضوب عليه ، فعاقبه الإمبراطور بخصائه . وكانت عادة الناس أن من جرى عليه هذا العقاب الشنيع ينتحر بعده ، ولكن صو ـ ما فضّل الحياة على الموت ، حتى يفرغ من تاريخه . وهو يهتم اهتماماً خاصاً بتراجم الرجال ، وما أثر عنهم من الأعمال والأقوال الحكيمة .

(٢) آدم بيد Adam Bede ليس من المؤكد أن اسمه آدم ، ولقبه يكتب أحياناً Baeda أو Beda ، وهو راهب إنجليزى عاش فيما بين سنتى ٦٧٢ (أو ٦٧٣) و ٧٣٥م وكتب باللاتينية كتاباً فى التاريخ الكنسى للشعب الإنجليزى Historia Ecclesiastica Genes Anglorum ، وهو من أقدم المؤلفات فى تاريخ إنجلترا ؛ ولهذا يلقب بيد بأبى التاريخ الإنجليزى ، وهو من أوائل العلماء فى التاريخ الإنجليزى كله ، وله فضل كبير فى نشر المذهب الكاثوليكى فى الجزر البريطانية .

(٣) هو نيقولو ميكيافيلى Niccolo Machiavelli (١٤٦٩ ـ١٥٢٧م) مفكر وفيلسوف سياسى إيطالى من أهل فلورنسا ، وهو مشهور بكتابه المسمى « الأمير » الذى يرشد الأمراء فيه إلى أسرار السياسة . والسياسة عنده انتهازية لا ضمير لها ولا أخلاق فيها ، وقد وصف ميكيافيلى بأنه خبيث وصولى مع أنه فى الحقيقة كان رجلاً سليم الطوية ، ودليل ذلك أنه فشل فى ميدان السياسة ، ولم يصل إلى شىء يذكر.

(٤) الحكم هنا ينصب فقط على أهل الغرب ، أما بالنسبة للعرب ، فإن التاريخ كعلم كان مقرراً ومعترفاً به ، وكان يدرس ويدرّس منذ القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى لضرورته لتفسير القرآن والحديث ومعرفة رجال السند .

«وفى كتابنا هذا سنهتم ـ بصورة خاصة ـ بتطور الدراسات التاريخية الحديثة ، ولكننا سنتعرض لموضوع مهم وعسير ومثير للجدل فى نفس الوقت ، هو موضوع النزاع بين من يعتبرون التاريخ علماً أكاديمياً ـ يميل إلى التعالم والتفيهق فى أحيان كثيرة ـ والقائلين بأن التاريخ إنما هو وجه أساسى من وجوه التجربة الإنسانية » .

« وما دمنا قد عرضنا للمعانى الثلاثة التى يُستعمل التاريخ فيها ، فإن الوجوه الثلاثة التى يستعمل فيها لفظ « التاريخ » لا تبدو غير ذات معنى كما قد يظن ، ولو أنه ربما بدا محيراً فى بعض الأحيان .. » .

فلسفة التاريخ :

ونسترسل مع آرثر مارفيك فى كلامه عن التاريخ وفلسفته وما يتصل به ، فنجده يقول :

« وعندما نتحدث عن فلسفة التاريخ تطفر أمامنا صعوبات أخرى متصلة بالتحديد أو التعريف ، وهذا الاصطلاح « فلسفة التاريخ » يمكن أن تكون له ثلاثة معان رئيسية :

أما المعنى الأول ، فهو أن فلسفة التاريخ تُعْنَى بالنظريات العالية المستوى الخاصة بالأسباب العلوية والتيارات التحتية ، أو القوى الأساسية للتاريخ باعتباره حقيقة موضوعية (هى الماضى) » .

« وهناك معنى أدنى من ذلك لفلسفة التاريخ ، وهى أنها تصف لنا النظرة العامة الأساسية والمفهومات الأساسية أيضاً التى يأتى بها مؤرخ ، أو تأتى بها مدرسة من المؤرخين متعلقة بالمشاكل التاريخية التى يعالجونها ، متضمنة النظريات الخاصة بتعليل الحوادث ، أو مفهوم التقدم ، وما إلى ذلك » .

« وأخيراً من الممكن أن يستعمل مصطلح فلسفة التاريخ مرادفاً على وجه التقريب للمنهج التاريخى Historical Methodology ، أى: العملية الفعلية التى يسلك المؤرخ فى شعابها » .

« وحيث إننا لا نستطيع ـ من الناحية العملية ـ أن نقول : (إن هذه الكلمة سيكون لها هذا المعنى ولا معنى غيره) فإنه من المهم دائماً أن نتأكد من المعنى الذى نريده ونميزه عن غيره ، ومن سوء الحظ أن كثيراً من المصطلحات التى تستعمل فى علم أصول التاريخ المسمى باسم Historiography ، أو مراجعه،أو فى الصور المختلفة

لفلسفة التاريخ مصطلحات مبهمة يحمل الواحد منها أكثر من معنى . ومن الأمثلة البينة لذلك هذا المصطلح الهجين Historicism (بالعربية : الفكر التاريخى) ، وقد نشأ هذا المصطلح فى ألمانيا Historismus اشتقاقاً من اللفظ الإيطالى Storicismo ، وسنحاول فيما بعد أن نقدم مصطلحات بديلة له، ولكن خير ما نفعله به الآن هو أن نتجنب استعماله » .

« ويذهب نفر قليل من المؤرخين إلى أن الدراسة التاريخية ينبغى أن تُطلب لذاتها ولما تبعثه فى النفس من متعة ، وليس فى ذلك غرابة ، فقد قال الرياضيون وعلماء الكيمياء الحيوية والمثالون ذلك عن ميادين نشاطهم ، ويمكن من ناحية أن تعتبر مسألة المتعة فى الدراسة التاريخية تابعة للنقطة الأساسية المتعلقة بشوق الإنسان الغريزى إلى التاريخ ، وهو شوق يحس به ـ فى أقوى صورة ـ طالب التاريخ الملتزم به ـ سواء أكان محترفاً أم غير محترف ـ ومن ناحية أخرى يمكن ربط هذه المتعة بالمبدأ القائل بأن الشىء الذى يعطى المتعة للفرد، يمكن أن يكون مفيداً من الناحية الاجتماعية، أى: مفيداً للجماعة . وقد لجأ عدد قليل جداً من المؤرخين ـ عندما أرهقهم التساؤل عن فائدة التاريخ ـ إلى إنكار وجود أية فائدة فى دراسته . ولكننا إذا تمسكنا بالرأى القائل بأن التاريخ يدرس لذاته ، كما أن المعرفة تطلب لذاتها ، فإننا فى هذه الحالة نكون قد قلنا كل شىء ، أو لم نقل شيئاً على الإطلاق . فإن المعرفة إذا لم تنقل من إنسان إلى إنسان ، فإن دراسة التاريخ لا تكون لها فائدة البتة[1] أما إذا نقل العلم من إنسان إلى إنسان فإن ذلك يحقق هدفاً إنسانياً واجتماعياً . وعلينا أن نقارن ونقابل بين الخدمة التى يؤديها التاريخ وما تؤديه الفروع الأخرى من النشاط الفكرى . وعندما يقوم أهل التاريخ بتلك المقارنة فإنهم يهتمون بإبراز الناحية التعليمية من التاريخ كوسيلة لتمرين الذهن ، أو كدليل عملى على تشابه مشاكل المجتمع الإنسانى ومعضلات السياسة . والمشكلة فيما يتعلق بالقول بأن الاشتغال بالتاريخ فيه تمرين للذهن ، هو أنه يتوقف كثيراً على درجة الحزم أو التركيز التى يلتزمها القائم بالدراسة التاريخية ، ثم إنه يصعب تطبيقه على أولئك الذين لم تسبق لهم إلا معرفة عابرة بمؤلف أو مؤلفين من المؤلفات الكبرى فى التاريخ » .

---

(١) أى أننا إذا كنا ندرس العلم لذاته، ونطلب المعرفة إرضاء لنفوسنا فحسب دون أن نعنى بنقل ما نتعلم إلى الناس ، فإن دراسة التاريخ تظل قصراً على أصحابها ، ولا يتأتى منها أى نفع للآخرين .

« إن من يقوم بدراسة تاريخية مركزة مكثفة ، سيجد دون شك أن ذهنه قد تحسن بذلك . وفيما يتعلق بالحالة الخاصة للتاريخ فمن المعروف الشائع أن دراسته أحسن صور التعليم الحر ، وقد تعرضت هذه العبارة للمبالغات من جانب من يتناولون التاريخ على سبيل الهواية ، والمشتغلين بالأدب التافه ، وذلك لا مبرر له ولا معنى على الإطلاق، أما إذا أريد من وراء دراسة التاريخ أن نفهم الإنسان من شتى نواحيه المختلفة فإن دراسة التاريخ تصبح عنصراً مصاحباً أو مكملاً لرأى الذين يبررون دراسة التاريخ ؛ فإنها وسيلة ضرورية لتذكر تجارب الناس والجماعات الماضية على نحو يعين الفرد والجماعة على توجيه جهوده وجهودها توجيهاً سليماً وسط تيارات الحياة الإنسانية المتضاربة . ولقد اتخذ الناس أساليب شتى فى تصوير هذه الحقيقة ، فقيل إن التاريخ رحلة فى الزمان تزيد فى معارف الإنسان وتوسيع أفقه ، كما هو الحال فى الرحلات الفكرية الأخرى ، وكان من القائلين بهذا و . هـ. وولش W. H. Walsh ، الذى قال مرة إن من وظائف التاريخ الكبرى هو أنه يعرف الناس بزمانهم ، عن طريق رؤيته مقارناً بزمان آخر. وقال المؤرخان الفرنسيان لانجلوا وزينوبوس Seignobos, Langlois: إن التاريخ يعرفنا بالاختلاف فى صور المجتمعات، ويشفينا من مرض الخوف من التغيير ».

« أما القول بأن التاريخ دليل عملى للجماعات للسير فى مجاهل التجربة الإنسانية، فهو استمرار وإكمال لنظرية القائلين بأن التاريخ مدرسة للبشر ، وأنه إذا كان البشر يشعرون بالرغبة فى معرفة ماضيهم للاسترشاد به ، فإن قادتهم ومدبرى أمورهم أحوج إلى ذلك . وقد أدى هذا الرأى بكثير من المؤرخين إلى قول أشياء بالغة السخف فى تعظيم فائدة التاريخ، وكما أن هناك من ينكرون إنكاراً تاماً فائدة التاريخ فإن فائدته ووظيفته الاجتماعية وجدت فى السنوات الأخيرة من يبالغ فيها ، ولكن المؤرخ المحدث المعتدل فى تفكيره الذى يزن ما يقول وزناً جيداً، يكتفى بترديد ما قاله الأستاذ سترايرStrayer من أن « دراسة التاريخ تعين الإنسان على مواجهة المواقف الجديدة لا لأنها تقدم له أساساً للتنبؤ بما سيكون، ولكن لأن الفهم الكامل للسلوك الإنسانى فى الماضى يتيح الفرصة للعثور على عناصر مشتركة بين مشاكل الحاضر والمستقبل ، مما يجعل حلها حلاً ذكياً أمراً ممكناً . وليس معنى هذا أن دراسة التاريخ الحديث وحده هى التى تعود على الإنسان بالفائدة بالنسبة للحاضر والمستقبل ؛ لأن التاريخ كله مادة

واحدة . ودراسة قديمة لا تقل فائدة عن دراسة حديثة ، فكلها جوانب من التجربة الإنسانية المتعددة الصور ، فمع أن التاريخ لم يكن يدرس فى جامعات العصور الوسطى ، فقد كان دائماً معتبراً موضوعاً أساسياً فى تعليم الأمراء على أيدى رجال الدين ؛ ولهذا الغرض : ألف الأسقف بوسويه Bossuet سنة ١٦٧٩م تاريخه للعالم الذى سماه : « Discours sur l'histoire universelle».

وقد قال الأستاذ ستيوارت هيوز : « إن التاريخ كان يعد نفسه دائماً علماً شاملاً وعلماً وسيطاً ، وقد كان التاريخ فى الماضى يربط الشعر بالفلسفة ، وهو اليوم يربط الأدب بعلم الاجتماع . وربما يكون المؤرخون قد أغضبوا غيرهم أحياناً بالمبالغة فى الدور التحليلى الذى يقوم به عملهم ، ولكن سواء استطاع التاريخ أن يقوم بدوره كوسيط ، أم لم يستطع ، فإن التاريخ لا يستطيع أن يتخلص من دوره كعلم وسيط ، وما دام لكل شىء تاريخه فإن التاريخ كعلم يشمل كل شىء ، حتى الكاتب الصغير الذى يدرس مبادئ التأمين ، يجد نفسه يدرس إلى حد ما تاريخ التأمين . والتاريخ يكوِّن جزءاً من عمل الناقد الأدبى ، وجزءاً من عمل دارس العلوم الذى يدرس تطور علمه . وإذن: فالتاريخ يصبح ميدان التقاء كثير من العلوم ، وهذا هو ما يجعل التاريخ دراسة فاتنة، ومع ذلك فإن كل ما نفعله الآن هو أن نجيد صياغة مبررات دراسة التاريخ. إن الإنسان ينبغى أن يعرف ماضيه ، ولهذا .. فعليه أن يقف على ما يضمه الماضى من غنى وتنوع لا حد لهما ، سواء فى الفن ،أم العلم ، أم التنظيم الاجتماعى أم السياسة . وهذا الغنى وذلك التنوع هما فى الحقيقة مادة التاريخ »[1]..إلى هنا ينتهى كلام آرثر مارفيك .

وقبل أن ننتقل إلى الفقرة التالية ـ معلقين على تلك الفقرة الأخيرة من كلام

---

(١) انظر : Robert V. Daniels, Studying History. How and Why, 1966 .
Richard Pares, The Historian's Business (1961) P. 5.
Robert K. Merton, Social Theory and Social Structure (1957) P. 16 .
C. L. N. Brooke, The Dullness of the Past. 1957 .
May Mackisack, History as education (1956) P. 10 .
G. Renier, History, its purpose and method (1950) P. 29 .
Geoffrey Barraclough, History in a Changing World (1955) p. 29 , 30 .
Marc Komarovsky, Common Frontiers of sociology and history (1957) P. 264 .
H. Stewart Hughes. The Historian and the Social Scientist in American Historical Review, LXVI (1960) p. 46 .

مارفيك عما سماه فلسفة التاريخ ـ نقول : إن مصطلح فلسفة التاريخ له جاذبية كبيرة على العقول ، حتى ليحسب الناس أن هناك علماً قائماً بذاته ، أو فرعاً من فروع الدراسة التاريخية يسمى فلسفة التاريخ ، وذلك غير صحيح . فلا وجود فى الحقيقة لفرع من فروع المعرفة الإنسانية أو الدراسة التاريخية يسمى فلسفة التاريخ ؛ لأن تعليل الحوادث ومحاولة البحث عن أسبابها المباشرة وغير المباشرة والاجتهاد فى استخراج الأسباب والأحكام العامة ، كل هذه تدخل فى صميم الدراسة التاريخية نفسها ، ولا علاقة لها بالفلسفة ، فإذا وجد مؤرخ يحاول ـ بعد أن يحيط إحاطة تامة بالحوادث ـ أن يصدر عليها رأياً عاماً ، أو يجد لها تفسيراً شاملاً ، كما فعل ابن خلدون فى مقدمته ، فإن هذا فى ذاته لا يخرج ابن خلدون من زمرة المؤرخين ، أو يسلكه فى جماعة الفلاسفة ، فابن خلدون بكل ما قال فى مقدمته وتاريخه مؤرخ فحسب ، وآراؤه فى العمران مثلاً جزء من نظرته العامة للتاريخ واتجاهه فى فهمه وتعليل أحداثه ، فالدول عنده تقوم لتسقط ، والدول لها أعمار كأعمار البشر أو الكائنات الحية ، والترف يفسد أخلاق الجماعات ، والعصبية أساس من أسس الملك ، وما إلى ذلك ، وكل هذه آراء شخصية لا تكون فى مجموعها « فلسفة » عامة للتاريخ يمكن الحديث عنها ، كما نتحدث عن فلسفة هيجل أو فلسفة ديكارت أو فلسفة كانْت ؛ لأن الحقيقة أن الفرق بين طبيعة علم التاريخ ، وطبيعة مباحث الفلسفة جسيم ، فالفيلسوف فيلسوف بالطبع أو الاتجاه وأسلوب الفكر وطريقة النظر والاستدلال ، والمؤرخ مؤرخ بطريقته ومنهجه ، والغايات التى يرمى إليها من وراء ما يكتب من التاريخ ، والمؤرخ الحق يجتهد فى السير فى حدود علم التاريخ والتزام منهجه فى أمانة ؛ ولهذا فإن كبار من نسميهم فلاسفة التاريخ كانوا يرون أنفسهم مؤرخين فحسب ، وأرنولد توينبى الذى يعتبر أكبر فلاسفة التاريخ فى عصرنا ، كان يسمى نفسه مؤرخاً فحسب ، وكان الذين يحبونه ويعجبون به ، والذين تتلمذوا عليه ـ ومنهم أستاذنا محمد شفيق غربال ـ يقولون عنه إنه شاعر ، وهو نفسه كان يستريح لهذا الوصف على اعتبار أن دراسته للتاريخ تعتبر محاولة للوصول إلى إيقاع الزمن ومعانى الحوادث والروابط التى تربط بينها .

وكان محمد شفيق غربال رأس المدرسة العربية الحديثة فى تناول التاريخ ، يهتم بمنهجية التاريخ وصحة موارده وحسن الاستفادة من هذه الموارد، دون أن يهتم اهتماماً

خاصاً بالنظرات الشاملة أو الأحكام العامة ، وكان يعجبه أن يقال عنه إنه مؤرخ فحسب، وكتابه عن « قيام دولة محمد على » تاريخ صِرْف سليم قام على أدق مناهج البحث التاريخى ، أما كتابه عن « تاريخ المفاوضات المصرية الإنجليزية » فهو تاريخ دقيق قائم على الوثائق ، ولكن النظرات الفلسفية فيه كثيرة ، وأسلوب تعبيره عن آرائه وعرضه أحكامه أسلوب فريد رفيع ، سواء فى اللفظ أو المعنى ، ولكنه لم يقل قط إن فى كتابه هذا فلسفة فى النظر إلى أحوال مصر منذ الاحتلال الإنجليزى فى سبتمبر ١٨٨٢م،إلى نهاية مفاوضات سعد زغلول ورامزى ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية.

وهذا الكلام لا يمنع المؤرخ من التفلسف إذا شاء ، شريطة أن يستوفى أشراط الدراسة التاريخية فيما يكتب ـ أولاً ـ ثم يتفلسف إذا شاء . وفلسفته هذه لا تسلكه قط فى زمرة الفلاسفة ؛ لأن المؤرخ الذى يستهويه لفظ فلسفة وينفق فيه جهده ، لا يستطيع التزام المنهجية التاريخية ؛ لأن نزعة التفلسف تغلب عليه فيتمادى مع الأحكام العامة والأنظار الواسعة ، مما يؤثر فى منهجه العلمى التاريخى ، ويخرجه من إطاره لا محالة .

والقول الفصل فى هذا الباب أنه لا يوجد بالفعل علم أو فن يسمى فلسفة التاريخ . حقاً إن هناك مؤرخين لهم نظرات بالغة العمق والحكمة ، وآراء عامة فى الغاية من الصدق والسداد ، ولكن ذلك لا يخرجهم من نطاق التاريخ . وهذا فى ذاته يدلك على أن ما يطالب به البعض من إنشاء كراسىّ جامعية لفلسفة التاريخ ، إنما يخادعون أنفسهم أو يَدلُّون على قلة فهم للتاريخ والفلسفة جميعاً . ومن أعجب ما سمعناه ما اقترحه بعض الجامعيين عندنا من إنشاء أقسام فى الكليات لفلسفة التاريخ ، وهذا هباء لا يتحصل من ورائه شىء ، وهو فى ذاته يفسد النظر التاريخى ويضر بالدراسة التاريخية دون أن يضيف للفلسفة شيئاً ، وربما استطعنا أن نقول إن التاريخ لا فلسفة له ، وأننا لا نستطيع أن نصف مؤرخاً بأنه فيلسوف بسبب الاختلاف البيِّن بين طبيعة علم التاريخ ومباحث الفلسفة ، والمؤرخ الذى يريد أن يتجاوز بما يكتب مطالب علم التاريخ من دقة وضبط وتحقيق إلى ما وراء ذلك من إصدار الأحكام العامة أو ربط الحوادث بعضها ببعض برباط من التفلسف ، هذا الطراز من أهل التاريخ يمكن أن يوصفوا بأنهم حكماء ؛ لأن المؤرخ المتمكن الواسع الاطلاع المتحقق من فهم الأمور يصل إلى شىء يشبه الحكمة ؛ لأن الحكمة هى الفهم الواسع الشامل للأمور على

أساس الواقع ، فالحكمة ثمرة إدمان النظر ، وأنت عندما تقرأ كتابات شبنجلر مثلاً فإنك فى الحقيقة لا تجد فيلسوفاً ، وإنما حكيماً ـ أى: عالماً استخرج من دراسة تاريخ الغرب حكمة ، هى أن المجتمع الغربى دخل فى دور التدهور منذ قيام النهضة الأوربية، وهذا رأى لم يقل به غيره ، وقد أيده فيما بعد هُويتسنجا فيما كتب عن « خريف العصور الوسطى » ، وهو عنده خريف الحضارة الغربية كلها . ونحن هنا لسنا أمام فلسفة ، بل أمام حكمة ، وشبنجلر هنا حكيم لا فيلسوف ، وكذلك يمكن القول فى زينوبوس وتوينبى ، ومن فى طبقتهم .

التاريخ حوار بين الماضى والحاضر :

يقول كثير من العلماء إن كل عصر ينبغى أن يكتب التاريخ من وجهة نظره ؛ لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معنى بالنسبة له يختلف عن تقدير العصر الآخر ، وكل عصر كذلك يحاول أن يرى الماضى من خلال اهتماماته والأفكار السائدة فيه، ومن هنا قال كثيرون من المؤرخين إن التاريخ حوار بين الحاضر والماضى ، وهذا فى ذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة فى الدراسة التاريخية ، فإن التاريخ بطبعه ـ كدراسة للإنسان وأعماله ـ تتأثر صورته التى يراها المؤرخ تأثراً واضحاً بالأحوال المادية والمعنوية فى الوسط الذى كتبت فيه.وليس فى هذا عيب أو مأخذ على التاريخ، فكل العلوم الاجتماعية تخضع لهذا التأثر ، وصورة المتنبى كما يرسمها مؤرخ أدب فى القرن الثامن عشر مثلاً ، تختلف عن صورته كما يرسمها مؤرخ أدب اليوم، وكذلك الحال مع الدولة الأموية مثلاً فإن تصوير الجاحظ لها يختلف تماماً عن تصويرنا نحن لها ، بل إن نظريات العلوم الرياضية والدقيقة والطبيعية كثيراً ما تكون وليدة الظروف التى أحاطت بمن ابتكروها ولفتت أنظارهم إليها ، فلولا أن توماس مالتوس Thomas Malthus قد عاش فى عصر انفجار سكانى لما تنبه إلى ظاهرة زيادة السكان،ولما ابتكر نظريته المشهورة فى العلاقة أو ـ بتعبير أدق ـ انعدام العلاقة بين زيادة الموارد وزيادة السكان ، ولولا نظرية مالتوس هذه لما توصل تشارلس داروين إلى ضبط نظريته عن «صراع البقاء » . وأعتقد أن أحداً لا يناقش فى أن سنوات الحروب تكون فى الغالب سنوات إسراع فى الاختراع والابتكار؛لأن ظروف الخطر، ورغبة الجماعات فى النصر، والتخلص من الأخطار، تشحذ القرائح إلى أبعد حد ، وليس هناك عالم رياضى أو طبيعى إلا وهو متأثر إلى حد بعيد فى آرائه بالظروف المحيطة به ، والعالم الذى ينكر

ذلك إما مخطئ أو مخادع لنفسه ، وإذن: فلماذا يوجه اللوم إلى التاريخ وحده، ويقال إنه يتأثر دائماً بعصر المؤرخ وظروفه ومزاجه ؟

ومن الواضح أن اهتمامات المؤرخين فى عصر ما تختلف عن اهتماماتهم فى عصر آخر ، ومن أدلة ذلك أن الاهتمام بالسيرة النبوية وشرحها وتفصيلها عندنا نشط جداً فى القرنين السادس والسابع الهجريين ؛ لأن توالى الأخطار على الأمة الإسلامية دفع المؤرخين المسلمين إلى الارتداد إلى سيرة النبى ﷺ يلتمسون فيها الحل أو المخرج، أو لمجرد تقوية الروح المعنوية ، فظهرت كتب مثل : « الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء»لأبى الربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسى ، و« تاريخ الخميس» للديار بكرى ، و« دلائل النبوة » للبيهقى ، و « دلائل النبوة » لأبى نعيم ، و«الروض الأنف » فى شرح سيرة ابن هشام لأبى زيد عبد الرحمن السهيلى ، و « شرح السيرة » لأبى ذر الخشنى ، و« شرح المواهب اللدنية » للزرقانى ، و « الدرر فى اختصار المغازى والسير » لابن عبد البر ، و « الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى » للقاضى عياض بن موسى السبتىّ و« عيون الأثر » لابن سيد الناس ، و« كنوز الحقائق » للمناوى ، وكلها كتب فى سيرة الرسول ﷺ ، وليس من المصادفة ظهورها كلها فى هذه الفترة التى توالت فيها الأخطار على الأمة الإسلامية .

ومن الملاحظ أن اهتمام الناس فى الغرب بدراسة التاريخ ، واجتهاد الكثيرين من العلماء فى تحويل هذه الدراسة إلى علم مستقل مستكمل لأشراط العلوم ، نبع ـ إلى حد ما ـ من قيام القوميات والدول الكبرى فى أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وواضح أن الأجيال التى قامت بإنشاء هذه الدول والإمبراطوريات شعرت بالحاجة إلى معرفة الماضى ربما لتستنير به ، إذ لا شك فى أن معرفتك بما قطعت من الطريق تعينك على معرفة الباقى ، ومن هنا أخذ نيبوهر ، ورانكه ، وبوركهارت ، وغيرهم أهميتهم كمؤرخين فى عصر الدعوة للوحدة الألمانية وقيامها ، واهتمت الدول الألمانية بتيسير عملهم، ففتحت لهم دور المحفوظات ؛ لكى يستخرجوا ما يستطيعون من حقائق الماضى، وهذا يؤكد لنا الحقيقة التى ما زال الكثيرون يجادلون فيها، وهى أن الماضى لا يدرس لذاته ، بل للحاضر والمستقبل ، وإن كتابة التاريخ إنما هى صورة من الحوار الذى لن يتوقف بين عصرنا والعصور التى سبقته . ومن المؤكد ـ على أى حال ـ أن المؤرخ مهما بلغ تجرده لا يستطيع التخلص من روح عصره . وفى بعض

الأحيان نشعر أن المؤرخ يبحث عن حاضره فى الماضى الذى يدرسه ، فاجتهاد رانكه فى دراسة تاريخ الرومان راجع إلى إيمانه العميق بالدولة البروسية التى كان يخدمها ، ورغبته فى التماس الأدلة على صواب رأيه المؤمن بقوة الدولة، وأهمية هذه القوة فى تاريخ روما فى أزهى عصورها عندما كانت الدولة الرومانية تهيمن على كل شىء .

وبديهى أن أى مؤرخ ذكى يتحرى دائماً أن يكتب ما يكتب من التاريخ على صورة تنفع معاصريه ، أو تكون ذات قيمة ونفع لهم على الأقل ، ومن هنا كانت كتابة سير عظماء الرجال موضوعاً مطلوباً دائماً ؛ لأن النفس الإنسانية تميل دائماً إلى معرفة تفاصيل حياة أولئك الرجال ؛ ولهذا فكتب التراجم كتب ذات معنى للحاضر . والهدف الرئيسى من الحوار التاريخى، أو من النظر إلى التاريخ كحوار بين عصرنا والعصور الماضية هو أن نرى أين أخطأوا لكيلا نقع فيما وقعوا فيه. وفى العصور الوسطى - حينما كانت عيون الناس متجهة نحو الحياة الأخرى وحدها دون أمل فى صلاح الحاضر - كان أفق أصحاب المدونات التاريخية ضيقاً جداً،فلم يكن يهمهم من الماضى إلا ملوكه وأمراؤه وكبار علماء الدين والصلحاء فيه. ومن عدا هؤلاء فلا وجود لهم فى حسابهم، ولا يمكن أن يكون لهم فى التاريخ دور ولا ذكر ، ومن هنا يجوز لنا أن نقول إن الماضى كما يراه جيلنا يختلف عن نفس الماضى كما رآه الجيل السابق علينا، وكما سيراه الجيل الذى سيأتى بعدنا، ومن هنا يصدق القول بأن للأمة الواحدة أكثر من تاريخ، ولابد - لهذا - لكل عصر أن يكتب التاريخ من وجهة نظره ، وكما أننا نتعجب من السخافات التى ملأ بها ابن إياس «بدائع زهوره»، فإن الأجيال القادمة دون شك ستتعجب من نظرتنا لماضينا،بل أغلب الظن أن عجبها سيكون أشد من نظرتنا إلى حاضرنا. وهذا الكلام لا يقلل من قيمة « بدائع الزهور » كمرجع أساسى من مراجع تاريخ مصر والإسلام ؛فإن الكتاب عظيم القيمة ، ولكن ابن إياس - تمشياً منه مع روح عصره - أورد أحياناً تفاصيل تبدو لنا اليوم وكأنها غير ذات قيمة، ولو أن الواقع هو أن كل شىء ورد فى الكتب القديمة له معناه وقيمته بالنسبة لنا أو لغيرنا، وما يبدو قليل القيمة فى نظرنا قد يكون عظيم القيمة فى نظر آخر، أو فى نظر عصر آخر، والمسألة نسبية .

ويرى كثيرون من المؤرخين أن ذلك يقوى حجة القائلين بأن التاريخ لغو ، فما دامت صورة نفس الشىء تتغير بحسب العصور، فلا يمكن أن يكون التاريخ علماً ؛

لأن العلم يقوم على ثبات الحقائق ولو لفترة طويلة من الزمن ، فقد ظلت نظريات علم الطبيعة ثابتة قروناً متطاولة، ولم يدخل التغيير عليها إلا بعد أن اتسعت آفاق العلم الإنسانى إلى حد استلزم إعادة النظر فى كل حقائق العلوم ، ثم إن عالم اليوم يملك من الأدوات ووسائل القياس والحساب والتحليل ما يُمكِّن من الحصول على رؤية جديدة تزعزع الثقة فى قواعد الماضى الثابتة ، ومن العجيب أن هذا التزعزع فى حقائق التاريخ وتغير صورته بحسب الأجيال والأشخاص يعجب الكثيرين من المؤرخين القائلين بأن دراسة التاريخ لا فائدة فيها ، وإنما هى تمارس للمتعة الشخصية ليس غير. ويوجه الكثيرون إلى التاريخ ـ كعلم ـ نقداً شديداً ، بسبب ارتباطه الدقيق بالمجتمع الذى يكتب فيه ، ولكن هؤلاء النقاد ينسون أن ذلك ينطبق أيضاً على كل أوجه النشاط الفكرى الذى يقوم به الإنسان ، وأن الظروف التى تحيط بالمشتغل بالعلوم الإنسانية جميعاً هى التى توحى إليه بما قد يبتكر من آراء ونظريات ، ومثال ذلك ما ذكرناه من أن توماس مالتوس Thomas Malthus ـ طليعة علماء الديموجرافيا (علم السكان) ـ لم يقم بإجراء دراساته البالغة الدقة فى شئون السكان إلا بسبب ما كان يلاحظ من زيادة مضطردة فى أعداد السكان من حوله ، وكان المفهوم الذى انتهى إليه مالتوس وهو مفهوم الصراع للبقاء Struggle for survival، هو الذى عجل بتبلور آراء داروين ونظرياته عن النشوء والارتقاء والتطور ، على أساس من نظريته القائلة بأن البقاء للأصلح Survival of the fittest ، وعلى هذا فإن نظريات مالتوس وداروين ومن فى طبقتهم من أهل العلم ، ناتجة عن التأثر بالبيئة والظروف التى كانوا يعيشون فيها؛ ومن هنا فإن نقد علم التاريخ بأن حقائقه كما يعرضها المؤرخون تكون دائماً متأثرة بالظروف التى يعيشون فيها نقد لا محل له . ولا يمكن القول قط أن أهل العلوم والباحثين فى العلوم الاجتماعية عندنا اليوم متحررون تماماً فيما يصدرون من الأحكام على الأفكار السابقة والآراء الشائعة فى عصورهم ، وهذا لم يمنع من القول بأن المؤرخين ربما كانوا أكثر تأثراً بهذه الظروف والآراء من غيرهم من أهل العلوم .

وقد لاحظ آرثر مارفيك فى كتابه المشار إليه (سابقاً) أن مؤرخى القرن التاسع عشر فى الغرب الأوربى وأمريكا كانوا يوجهون اهتمامهم بصورة خاصة نحو أعمال الحكومات وعظماء الرجال وتطور الوعى القومى، ونحو الحريات السياسية ، فى حين

أن مـؤرخى القرن العـشرين يوجـهـون عناية أكبـر نحو الاقـتـصاديات والديمـقراطيـة الاجتمـاعية ، وهم يصرفون جـهدهم إلى التاريخ الاقتصـادى مهتمين بالجـماهير دون الأفراد . وأبدى نفس المؤرخ ملاحظة أخرى لها أهميتها : وهى أن المؤرخين فى غرب أوربا كانوا يهتـمون بصورة تقليدية بحـضارات بلادهم وحدها ، وكانوا إذا التـفتوا إلى تاريخ إقليم آخر أو حضـارته لم يروا من هذا التاريخ وتلك الحضارة إلا مـا كان صدى أو رد فعل للحضارة الغربية فيه، أما الآن فقد ظهرت قوميات أخرى كثيرة جديدة وأخذ أهلها فى العمل على اسـتلفات الأنظار نحو تواريخ بلادهم وحضاراتهـا . ومن هنا فقد أدت دراسات التـاريخ الإفريقى وتاريخ أمـريكا اللاتينية ـ وأهم من ذلك تـاريخ اليابان والصين وشرقى آسيا ـ إلى تغير الصورة العامة لتاريخ البشر ، والاتجاه الغالب فى أيامنا هذه «التى تهدم فيها عالم الاستعمار وإمبراطورياته » يقصد إلى دراسة تلك الحضارات غـير الغـربية من ناحـية تـطورها المحلى الخـاص بها لا مـن ناحيـة علاقـاتها بالغـرب وصراعـها معه فـحسب، كما كـان الحال قبـلاً. وهذا وسع آفاق الدراسات التاريخـية ، وسيؤدى حتماً إلى تغـيير الصورة التقليدية التى تعودناها فيما يعـرف بالتواريخ العالمية الكثيرة المـتداولة اليوم، وكلها أوربية أو مكتوبة من وجـهة نظر غربية ، فالاهتمـام فيها منصب نحـو الغرب وحـضارته وحـدها ، فهى فى الواقع تواريخ للغـرب الأوربى ، لا تواريخ عالمية ، والتواريخ العالمية الجديرة بهذا الاسم لم تكتب بعد ، وعلينا نحن أهل العالم الثـالث الذين لم يحسب لهم حسـاب فيمـا يتداول الناس من تواريخ عالمـية أن نعـيد كتـابة تاريخ البـشر وحـضارتهم ، بادئين بدراسـة تاريخنا نحن ؛ لكى يتـسنى لنا وضعها فى مكانها الصحيح فى سلسلة التاريخ العالمى .

وإذا نحن اعتـبرنا التاريخ حـواراً بين أجيالنـا والأجيال السـابقة ، فينبـغى أن تتسع مائدة الحوار حتى يكون فيها لكل قوم من أهل الأرض مقعد وصوت .وهنا فقط يمكن أن يقال إننا نستطيع كتابة تاريخ عالمى ، أمـا أن يكون التاريخ العالمى قصة الصراع بين دول أوربا على سيادة العالم ، فهذا زيف مقصود ، أو غير مقصود .

***